التحوّل والاستمرار:(*)
الجماعات المسيحية في البلاد الإسلامية
م. جرفرز وَ ر. بخعازي

قراءة محيي الدين صبحي

يتألف هذا الكتاب الهام والطريف من مقدمة وأربعة أجزاء. ويشير جرفرز Gervers في كلمته التمهيدية إلى أن الصراع العربي ـ الإسرائيلي قد شغل الأفكار عن نواح طبيعية في التعايش بين الديانات وتمثل المجتمع الإسلامي للجماعات غير الإسلامية في عملية مستمرة. والمطلوب هو فهم العوامل التي جعلت الأوضاع تصل إلى ما هي عليه، أي لماذا استمرت بعض جماعات المسيحية الشرقية في البقاء، في حين اختفت جماعات أخرى دون أن تترك أثراً.

يشرح بولييت Bulliet في المقدمة ما يقصده من مصطلحي سيرورة ـ Process ووضع ـ Status، في التفكير في الطريقة التي يؤثر بها تاريخ الجماعات النصرانية في التاريخ الاجتماعي للإسلام؛ وبالعكس، أي كيف يسعفنا تصور أكثر دقة عن تطور المجتمع الإسلامي على تفهم وضع النصارى في أوضاع تاريخية مختلفة. وهو يقول بالفصل بين المفهومين. فهو يعني بالسيرورة الطريقة التي يخرج بها أفراد من جماعات دينية وكيف تستقبلهم الجماعة الأخرى. أما الوضع فيشير إلى التصور الذي تحمله كل جماعة عن الأخرى في وقت ومكان محددين. بناء عليه فإن مصطلح السيرورة في

---

* مراجعة لكتاب: Conversion and continuity, Indigenous Christian Communities in Islamic Lands Eigth to Eighteenth Centuries. Edited by Michael Gervers and Ramzi Jibran Bikhazi. 1990.

الكتاب يكافىء الارتداد، أما الوضع فيكافىء المداومة. ومن الطبيعي أن الأبحاث الستة والعشرين التي يضمها الكتاب تناوح بين المفهومين. غير أن نقطة الضعف الأساسية في الأبحاث أنها لم توفق إلى تعليل اعتناق غير المسلمين للإسلام تعليلاً يخرج عن أو يضيف إلى ما أورده المؤرخون العرب من قديم الزمان، بالقناعة العقلية أو الهداية الروحية أو المنفعة المادية، أو بالإكراه. ويمكن حصر أوضاع العلاقات بين المسيحيين والمسلمين بإحدى الحالات التالية في حال السيطرة الإسلامية العربية:

الحالة الأولى: المسلمون مسيطرون على الحكم، وغير المسلمين يشكلون أكثرية السكان. عندئذ يشدد الحكام المسلمون على التمايز الديني في الأمور الاجتماعية ليحموا وضع الأقلية المسلمة ويغرسوا الشعور بالدونية والخضوع في نفوس رعاياهم. كذلك يشدد غير المسلمين على هذه الفروق، أملاً في أن يستعيدوا استقلالهم. وما لم تحدث ثورات يظل الصراع في حده الأدنى. هذه هي حالة العرب في إسبانيا في القرن الثامن، وحالة المسلمين في الهند بعد القرن العاشر.

الحالة الثانية: المسلمون يحكمون حكماً مسالماً. ومعظم الجماعة المسلمة تتحدر من أصول مسيحية وغير مسلمة. في هذه الحالة لا يشدد الحكام المسلمون على التمايز الاجتماعي. وفيما يُقْبِلُ العلماء المسلمون على تشجيع اعتناق الإسلام بإبراز التقارب بين الديانتين ينقسم القادة المسيحيون بين سلبيين يستسلمون للوضع القائم ومكافحين يرفضون التلاؤم.

الحالة الثالثة: المسلمون في الحكم لكنهم منقسمون متحاربون. يبقى المسيحيون في الحالة الثانية لكن زعماءهم يشجعون الآراء الدينية التي تدعو إلى الثورة على المسلمين ويسعون إلى تلقي معونة خارجية، التمايز الاجتماعي يزداد.

الحالة الرابعة: المسلمون على رأس الحكم ولكن تتحداهم قوى خارجية غير مسلمة. الحكام المسلمون موزعون بين استغلال المسيحيين وبين جعلهم

كبش فداء. والمسيحيون منقسمون بين متابعة تعايشهم السياسي والاجتماعي مع المسلمين، والنزوع إلى المغامرة للتعاون مع القوى الأجنبية، مما يؤدي إلى الانقسام فيما بينهم.

هذه الحالات الأربع للسيطرة الإسلامية على المسيحيين تقابلها أربع حالات مناظرة لسيطرة المسيحيين على المسلمين. سوى أن النخب المسيحية الحاكمة في القرون الوسطى لم يكن لديها الرصيد الفكري الذي كان عند المسلمين في التعامل مع أهل الذمة، كما كانت تنقصها الثقة بالنفس التي تمتع بها خلفاء المسلمين لمدة عشرة قرون. وتبعاً لذلك ينقسم الكتاب إلى أربعة أجزاء، لا تتقيد ضرورةً بالتقسيمات السابقة لكنها تندرج فيها بشكل أو بآخر.

يبحث الجزء الأول في أسباب اعتناق الإسلام والمحاجات التي ترد تلك الأسباب. ويبحث الجزء الثاني في عملية اعتناق الإسلام في سيرورة تمتد من فتوح الإسلام الأولى إلى نهاية عصر المماليك ومن ضمنه الحروب الصليبية وعلاقة المسيحيين الشوام المحليين بالحكام الصليبيين وحالات ارتداد بعض المسلمين إلى المسيحية والزواج المختلط بين الفرنجة والعرب المسلمين في الممالك الصليبية ثم انقلاب الأدوار وخروج الصليبيين واعتناق بعض من بقي للإسلام. كما يضم هذا الجزء أبحاثاً عن المجتمع القبطي في مصر ودخول الأقباط في الإسلام ما بين عصر المنصور قلاوون في نهاية القرن الثالث عشر وحكم المماليك البحرية. فيما يختص القسم الثالث بالمقاومة التي تبديها المجتمعات للتحول عن دينها. فيعرض المقاومة التي أبدتها المسيحية في آسيا الصغرى في أواخر القرن الثالث عشر، وكذلك مقاومة المسلمين في إسبانيا لتنصيرهم في مملكة بلنسية خلال القرنين الخامس والسادس عشر، وما صاحب ذلك من منع استعمالهم للغة العربية تمهيداً لتمثلهم اللغوي. وكذلك زوال المجتمعات النصرانية من المغرب العربي. كما يضم الجزء الثالث مقالين عن الموارنة في العصور الوسطى وفي العصر الحديث، ويقدمهم على أنهم نموذج ناجح للجماعة المسيحية التي قاومت محاولات الأسلمة. الجزء الرابع بعنوان: الماضي بوصفه دليلاً إلى المستقبل. ويعالج تفاعل مسلمي

كيرالا مع نصارى أوروبا في القرون الوسطى، وعلاقات الملكيين في سوريا مع العثمانيين.

II

خلاصة سبل الإيمان

من الأوراق المهمة ورقة يعالج فيها الباحث س. هـ. غريفيث Griffith ما يسميه «أول خلاصة لاهوتية بالعربية: علم الكلام المسيحي في فلسطين في القرن التاسع الميلادي». وهي تكشف عن مجتمع مسيحي غير معروف حتى الآن، يحاول أن يتجنب إغاظة المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، ويستعمل ألفاظاً إسلامية مثل «لا إله إلا الله» ويغفل ذكر الثالوث والإشارة إلى المسيح على أنه ابن الله. وهو سلوك ينسجم مع الحالة الثانية التي أشرنا إليها من قبل. ومن المهم كذلك الإشارة إلى تقبل المسلمين لهذا المسلك «التوحيدي». غير أن كاتب الخلاصة يرى في هذا السلوك خطوةً أولى نحو اعتناق الإسلام. إذ يقل الفرق بين القول إن المسيح هو ابن مريم أو القول إنه ابن الله ـ ويعلق غريفيث بأن النصارى الذين يعتنقون الإسلام عن هذا الطريق يحملون معهم نصرانيتهم إلى إسلامهم الجديد. غير أن كاتب الخلاصة يمس نقاطاً مرهفة في الخلاف فالمسلمون: «حين يقولون: «لا إله إلا الله» فإنهم يقصدون إلهاً آخر غير الأب والابن والروح القدس. فهم يؤمنون بأنه «لم يلد ولم يولد» وبالتالي فالروح القدس ليس أكثر من مخلوق بين بقية المخلوقات. ولهذا فقولهم «لا إله إلا الله» يتفق مع معتقدنا في اللفظ، مختلف في المعنى».

يلحق بهذا النقاش النظري بحث عن «نظرية التبني» الإسبانية وأثرها في تسهيل احتلال العرب لأسبانيا وانتشار الإسلام فيها بعد ذلك. ومحور النظرية هي أن المسيح بوصفه ابناً «طبيعياً» للرب يجعله الشخص الثاني في الثالوث، لكنه بوصفه إنساناً ابن بالتبني للرب. وقد ردت كنيسة روما هذا القول وتابعها الباحثون إلى يومنا هذا بأن جذور نظرية التبني «وضعت بدافع تفنيد اتهام المسلمين للمسيحيين بأنهم يعبدون ثلاثة آلهة. أما فكرة أن المسيح ليس إلا ابن الرب بالتبني فليست بعيدة عما يذهب إليه المسلمون بأن المسيح واحد

من الرسل».

يعلن الباحث جون ماك ويليام William أن هذه النظرية التي طرحها أسقف توليدو إليباندوس (718 ـ 802م) تمثل تراث الكنيسة الإسبانية في فهمها للمسيح، ويسند أقواله بذكر أسماء عدد من اللاهوتيين الذين عقدوا مجامع في إسبانيا تؤيد هذا المذهب منذ عام 550 سواء ضد المذهب الأرياني الذي اعتنقه حكام إسبانيا القوط أو كنيسة روما. ويقول إن الاحتلال العربي لثلثي إسبانيا شكل حماية لهذه الكنيسة من الحلف الذي انعقد ضدها بين روما وشارلمان (حوالي 780م). وبالتالي «فلئن كانت السيطرة الإسلامية على ثلثي إسبانيا لم تلعب أي دور فعلي في الخلاف اللاهوتي، فيبدو أن لها إسهاماً له مغزاه في تشكيل ردود الفعل الفرنجية و(إلى درجة أقل) الرومانية على مذهب التبني». ثم يبين بتحليل مطول أن المذهب الإسباني نشأ بتأثير القديس أوغسطين (354 ـ 430م) هذا التأثير الذي اعترف بالتعريف الخلقدوني الأول للدين المسيحي (451)، فيما رفضت الكنيسة الإسبانية التعديلات اللاحقة كلها. وبالأخص مقررات مجمع القسطنطينية الثاني عام 553م. وبعد الغوص في الخلافات اللاهوتية التي كانت تنشأ إثر انعقاد كل مجمع، يطرح الباحث فرضيته بأن وجود العرب والإسلام في إسبانيا قلب معارضة الفرانك والرومان إلى عداء للمذهب الإسباني الأصيل، في حين أن كنيسة روما كانت تعارض كل إظهار للروح القومية والاستقلال المحلي. كما أن عدم تدخل العرب في الشؤون الكنسية وحمايتهم لها أعطاها مزيداً من الحرية في إعلان المبادىء التي تعتقدها واتخاذ المواقف التي تمليها عليها قناعتها. كذلك يشدد الباحث على امتناع العرب عن نشر الإسلام بالقوة والضغط، حتى إنه يذكر أن نسبة المسلمين حتى منتصف القرن التاسع لم تتجاوز 5٪.

انتشار الإسلام

يلاحظ الباحث بولييت Bulliet، من جامعة كولومبيا، أن المؤرخين المسلمين لم يهتموا بتسجيل حركة انتشار الإسلام في عصور الفتح. لذلك يقترح أن نبحث عن هذه الحركة المبكرة في تراجم الرجال، حيث تنتهي

سلسلة النسب إلى اسم أعجمي غالباً ما يكون أول من اعتنق الإسلام في الأسرة. وبعد أن يستعرض عشر حالات من اعتناق الإسلام يلاحظ «أن أياً من هذه الحالات لا يعطي مؤشراً على جهد تبشيري منتظم توجهه الحكومة أو هيئة دينية. وأن أياً منها لا يشير إلى خبرات روحية أو خوارق». وما دامت المسألة على هذا المقدار من «الوضعية»، فلم يبق إلا الالتفات إلى النواحي الاجتماعية لذلك يتساءل الباحث بولييت: كيف يعلم المسلمون بالتحاق عضو جديد بهم؟ وكيف يعلم غير المسلمين بانسحاب عضو منهم؟ وكيف يعلم المرء أنه صار مسلماً؟ وهي أسئلة غير وجيهة، كما أن الباحث لم يوفق إلى إجابات حكيمة، كقوله: يصير المرء مسلماً بنطق الشهادة بلغة قد لا يفهمها ودون فهم مضمونها وينتحل اسماً عربياً وملابس عربية ـ فهذه الظاهرات لا تؤدي إلى خلق مجتمع متماسك وثقافة تشمل المسلمين وغير المسلمين، بالإضافة إلى انتشار اللغة العربية وثقافتها. وهو يختم البحث بحكم مخالف للشواهد التاريخية، إذ يقول إن الذين أسلموا حديثاً ليس لهم إسهام ثقافي أو روحي، علماً بأن الموالي أسهموا في كل مجالات الحضارة العربية الإسلامية.

متى انتشر الإسلام؟

كان إجماع الدارسين، إلى عهد قريب، أن غير العرب وغير المسلمين قد اعتنقوا الإسلام بعد قرن من الفتح تملصاً من دفع الجزية، اعتماداً على ما أورده اليعقوبي عن خراج مصر والعراق بين خلافتي عثمان (644 ـ 656م) ومعاوية (660 ـ 680). غير أن بيكر Becker جعل الانتشار الجماهيري للإسلام بين الأكثرية القبطية في مصر يعود إلى النصف الأول من القرن التاسع، كما عاد باعتناق البربر للإسلام إلى أوائل القرن الثامن على أثر استكمال الفتوح في شمال إفريقيا، وكذلك الأمر في أسبانيا. وهو يؤيد أرنولد بذلك برغم نقص الأدلة.

ويحاول الباحث مايكل موروني Morony إعادة النظر في هذه المعطيات على أساس تجنب إدخال عامل الجزية في اعتناق الإسلام. فيجد أن أبحاث هودجسون تجعل انتشار الإسلام يرجع إلى أواخر العهد الأموي وأوائل العباسي حيث دخل معظم سكان المدن والفلاحين في الإسلام، بسبب ازدياد

المساواة والتوسع الاقتصادي الذي جذب الفلاحين المسلمين إلى المدن. وفي السبعينات قرر بينيت Benett أن معظم سكان مصر وشمال إفريقيا اعتنقوا الإسلام في القرن التاسع وتابعه لابيدوس I. Lapidus فجعل ذلك في نهاية القرن التاسع. وذهب بولييت إلى أن التوزع الديني استقر على ما هو عليه في مصر وسوريا والعراق حوالي عام 1010، بما في ذلك أسبانيا. وذهب فراي Frey إلى أن الإسلام عمّ إيران بين 850 و950. وبذلك ينفصل انتشار الإسلام عن تواريخ الفتوح وإحصاءات الجزية ويلتحق بالعوامل الثقافية. فالطوائف غير المسلمة داخلها الوهن بفعل الفساد وانعدام المساواة والصراعات الطائفية. كما أن انتشار العربية والتمثل الثقافي وانتصارات الإسلام العسكرية وبساطته ـ إضافة إلى الدونية الاجتماعية والضرائب الباهظة لعبت دوراً في جاذبية الانقلاب إلى الإسلام. يضاف إلى ذلك عامل الاتصال الاجتماعي، فكلما ازداد اتصال غير المسلمين بالمجتمع المسلم زادت قابليتهم لاعتناق الإسلام، على طريقة «عربات القطار» التي يجر بعضها بعضاً. ويُدخل أرنولد عامل التنافس بين الطوائف الإسلامية من شيعة وإسماعيليين وزيديين في جذب غير العرب وغير المسلمين إلى طوائفهم ليتقووا بهم في الحروب ضد دولة الخلافة. فقد انتشرت الزيدية في جبال شمالي إيران والاسماعيلية في جبال شمالي الجزائر والموحدية في جبال المغرب، واحتوت جبال سوريا على الدروز والنصيرية والإسماعيلية. أما العراق فقد حكمه التنافس بين الحنابلة والشيعة، والإباضية في شمال إفريقيا، والعباسية في خراسان.

النصارى تحت حكم السلاجقة والعثمانيين

ينوه سبيروس خريونس، الباحث في جامعة نيويورك بأن هذا البحث الذي يطمح إلى تغطية خمسمائة عام من التاريخ عليه أن يجد مصادره في اللغات العربية والفارسية والتركية والجورجية والأرمينية والسريانية والإغريقية واللاتينية والإيطالية والألمانية والفرنسية والصربية والروسية والبلغارية.

في منتصف القرن الحادي عشر كانت آسيا الصغرى والبلقان منطقتين

مسيحيتين تماماً. وعند منتصف القرن السادس عشر تغيرت الخريطة الطائفية. فقد أجرى العثمانيون مسحاً لدافعي الضرائب بين 1520 و 1530م فظهر أن البيوت المسلمة الخاضعة للضرائب في الأناضول تمثل 92٪ من مجموع دافعي الضرائب، بينما يمثل النصارى 7,9٪. وأما في البلقان فقد كان المسلمون يمثلون 18,8٪ والنصارى 80,7٪ واليهود 5٪.

مر هذا التغير السكاني الكثيف والعنيف بخمسة أطوار:

1 ـ تمثل الطور الأول بغزوات القبائل التركية للأناضول من القرن الحادي عشر إلى نهاية الثاني عشر، وقد تركزت مستوطناتهم على هضبة الأناضول حيث صار النصارى أقلية فيها.

2 ـ كان القرن الثالث عشر يقدم ازدهاراً تجارياً للطرفين فكانت سلطنة قونية تواجه مملكة كيليكيا الأرمنية ودولتين يونانيتين في طرابزون ونيقية.

3 ـ كان القرن الرابع عشر إلى منتصف الخامس عشر عصر الفوضى بسبب تقاتل القبائل التركية وتقويض الممالك الثلاث، وتشريد السكان الأرمن واليونان من مدنهم. أما في البلقان فلم يكن للمسلمين وجود قبل الفتح العثماني، لكنهم صاروا ربع السكان في إحصاء 1520 ـ 1530م.

كان التركمان بدواً تعتمد حياتهم على تحويل الأراضي الزراعية إلى مراع لمواشيهم، كما يعتمدون على الغزو لسد حاجتهم للأدوات الضرورية، وللحصول على عبيد يبيعونهم في أسواق المسلمين. وقد هددوا المملكة السلجوقية بقدر ما خربوا دول الأناضول والبلقان، حتى أنهم شكلوا 19٪ من مسلمي البلقان و16٪ من مسلمي الأناضول. وقد تمكن العثمانيون من إخضاع هؤلاء البدو للدولة المركزية، وخاصة بعد أن استولى العثمانيون في البلقان على الأرض الزراعية والفلاحين العاملين فيها. وفي الأناضول جردوا الكنائس من أوقافها وضموها إلى وقف المسلمين منذ بداية القرن السادس عشر. وقد أثّر إفقار الكنائس على دورها الاجتماعي وأتاح الازدهار للمؤسسات الإسلامية. كما ساعد على انتشار الإسلام فترات من الضغط مارسها الحكام، ومنع الارتداد عن الإسلام

بالموت، وكذلك طبيعة الزواج عند المسلمين حيث يدفع الرجل المهر في حين أن عادة الدوطة تؤخر الزواج عند المسيحيين، إضافة إلى أن إباحة التسري عند المسلمين تشجع على كثرة النسل وتسلب النساء من المجتمع المسيحي.

III

انحسار الإسلام

غير أن مسيرة الإسلام لم تكن انتشاراً مظفراً في كل زمان ومكان، بل عانى انحساراً وهزائم حدت من تقدمه وأجبرته على التراجع. أبرز تلك الهزائم كان قرنان من الحروب الصليبية التي بدأت بمذابح مريعة، رداً على ما زعمه الصليبيون من اضطهاد المسلمين للمسيحيين العرب. وقدمت الباحثة هاديا دجاني شكيل (من جامعة تورنتو) تفنيداً موثقاً لهذا الزعم في بحثها المعنون «الفلسطينيون والفرنجة: تصورات وتفاعلات». فالمؤرخ الصليبي وليم الصوري يذكر بأن الضرائب المفروضة على مسيحيي فلسطين تمنعهم من إصلاح الكنيسة مما دفع الأمبراطور البيزنطي إلى تمويل هذا المشروع وإتمامه عام 1063. كذلك تنقل الباحثة عن مجير الدين الحنبلي صاحب كتاب «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» أن الخليفة المستنصر (توفي عام 1094) وقّع معاهدة سلام مع الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس (1059 ـ 1067) تقضي بأن يطلق المستنصر 5000 أسير بيزنطي لترميم كنيسة القيامة التي دمرها جده الحاكم، على أن يدفع الأمبراطور تكاليف البناء. وحين تم البناء أمر الخليفة الفاطمي المسلمين بإخلاء المنطقة. وتعلق الباحثة بأن هذا «يبيّن أن النصارى المحليين لم يكونوا يعيشون حياة البؤس التي يصورها كتاب الحوليات اللاتين الذين يعزون بؤس أولئك النصارى إلى تعايشهم السلمي مع جيرانهم المسلمين». ومن السخرية أن هذه الناحية التي ستعرف بناحية البطريق، ستكون هي المكان الوحيد الآمن من الذبح حين اجتاح الصليبيون المدينة المقدسة. غير أن الوقائع لم تكن تهم القطعان الجائعة إلى الدم «فتصورات اللاتين عن المسلمين قد تشكلت في أوروبا قبل الحرب الصليبية بوقت طويل نتيجة مجابهة اللاتين للمسلمين في أسبانيا، وقد لخصها وعبّر عنها بصورة مؤثرة البابا أوربان الثاني في مواعظه الصليبية ودعوته إلى الحج إلى الأراضي

المقدسة، وقد صور المسلمين على أنهم وثنيون، كفار، هراطقة، وهم أعداء الله والكنيسة». وهنا نقول كثيرة تسوغ المذابح الجماعية ضد المسلمين، ويرى الصليبيون في انتصارهم دليلاً على صحة دينهم وتقوى سلوكهم. ولكن بالرغم من كل فظاعات الصليبيين تقرر الباحثة أن «أكثرية السكان في مملكة القدس اللاتينية ظلوا مسلمين». أما في المناطق الريفية فقد تركز المسلمون في القرى الواقعة بين الخليل وبيت لحم، في وادي الجليل، وفي القرى بين القدس ونابلس. وكانت هذه المناطق هي العمود الفقري للاقتصاد الزراعي لمملكة اللاتين. ومن البديهي خلال قرنين من الزمان أن يحصل تزاوج وانقلاب من دين إلى دين بين عدد من الأفراد. لكنه لا يدل على تأثر أو تأثير جماعي بقدر ما يدل على مزاج وظروف فردية. أما الخط الرئيسي فكان الغزو ومقاومة الغزو حتى النصر النهائي.

حظيت أسبانيا بأربعة أبحاث من أصل ستة وعشرين، وإن كان هذا العدد يفوق حصتها بالنسبة إلى حجمها فلأنها تقدم صورة كاملة عن انتشار الإسلام ثم سيطرته الشاملة ثم أفول نجمه واندثاره من تلك الديار. فأسبانيا هي أرض التخوم التي ظلت المجابهة قائمة فيها بين دينين ومجتمعين وحضارتين. ويقرر الباحث حنا قسيس من جامعة كولومبيا البريطانية أن القرن الحادي عشر للميلاد شهد، لأول مرة منذ ظهور الإسلام، «آلام اقتلاع مجتمع إسلامي من أرضه نتيجة غزو المسيحيين لمدن المسلمين وقراهم». وهو يرتب على ذلك ثلاث نتائج أولها تولد الإحساس بالاقتلاع والغربة، ثانيها إن تفحص أسباب انقلاب الموقف العسكري حضهم على العودة إلى الإسلام السني كما طرحه المرابطون. ثالثاً: إن سقوط طليطلة عام 1085 غيّر نوع العلاقة التي كانت قائمةً منذ الفتح بين المسلمين والمسيحيين.

يختم الباحث حنا قسيس بحثه التاريخي المعمق بقوله الذي يكشف بعض ما يدور في المجتمعات المسلمة في أيامنا هذه: «يزداد تمسك المسلم بمعتقده حينما يقع هذا المعتقد تحت الهجوم، ويرى في الأصولية وسيلة استعادة الكرامة المفقودة عند أمة الإسلام. فهو لا يتمكن من انتزاع النصر من أنياب الهزيمة إلا عبر

إعادة التأكيد على إيمانه وعودته الشاملة إلى السنة. أما العالم المسيحي حين يجابه هذا الموقف ـ منذ القرن الحادي عشر وما بعد ـ فلأنه لا يستطيع أن يواجه الإيمان بالإيمان واليقين باليقين فإنه يلجأ إلى الحرب بوصفها أمضى الوسائل لكسر حالة الاستعصاء، بدلاً من أن يتبع المبدأ الإنجيلي في التفكير بالأمرين معاً».

لقد نجّت معركة الزلاقة الإسلام في أسبانيا لعدة قرون بدلاً من أن ينهار بضربة قاصمة. فنقرأ لمارك مايرسون من جامعة نوتردام عن «حياة المسلمين وبقائهم خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر في مملكة بلنسية المسيحية» حيث حافظ المجتمع العربي على تماسكه وثبت خط العصبية بين الرجال ذوي القرابة، وفرض زواج الأقارب حفظاً للأرض والثروة، كما ظل مصراً على تطبيق الشريعة على الأحوال الشخصية، وبالتالي فقد كان يرسل بعثات من شبابه إلى غرناطة والمغرب لكي يرجعوا فقهاء.

لا شك في أن سقوط غرناطة 1492م كان بمثابة إعلان وفاة الإسلام في شبه جزيرة أيبريا. فقد ازداد عدد المسلمين الخاضعين لحكم ملوك مسيحيين مما دفع هؤلاء إلى التخلص منهم باتباع سياسات أقل تساهلاً. ففي 1502 خير مسلمو بلنسية ويهودها بين الطرد والارتداد إلى المسيحية. المرتدون عن الإسلام دعوا باسم الموريسك، ومُنعوا من لبس الزي الإسلامي وبناء حمامات عامة وإظهار الاحتفال بالمناسبات الدينية واستعمال اللغة العربية بالنطق أو الكتابة وحرّم عليهم اقتناء كتب مكتوبة بالعربية. هذا الضغط الفكري أدى بالموريسك منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر إلى اختراع لغة Aljamiado وهي تعني ـ حسب تعريف الباحث أوتمار حجي من جامعة تورنتو ـ وجود نصوص أسبانية مكتوبة بحروف عربية، وقد جاء معظمها من منطقة أراغون، وقد كتب فيها بعض من الحديث وكتب الصلوات وعرض لتعاليم الإسلام. وكان عثور محاكم التفتيش على مثل هذه الكتب يؤدي إلى إعدام صاحبها.

IV

ما بين انتشار الإسلام وانحسار الإسلام نقطة مغيبة وهي الطريقة التي تم بها

هذان الحدثان التاريخيان. لقد تم انتشار الإسلام بأكثر الطرق السلمية إنسانية في تاريخ العالم. ولم ينتشر بتشجيع من السلطة بل على كره منها في أكثر الأحيان. ونحن بحاجة إلى دراسة تشرح سياسات الخلفاء وتأثير انتشار الإسلام على خراج الأمصار. والعامل الظاهر في الكتاب الذي نقوم بمراجعته الفوائد التي تعود على أهل الذمة إن أسلموا، مع نفي عوامل الاقتناع والكشف الروحي ـ أي أن الكتاب يوحي من بعيد بفقدان الإسلام لديناميكية روحية وفكرية داخلية. ولا أظن الناس من البلاهة بحيث يعتنقون عقيدة لا تحرك وجدانهم ولا تقنع عقولهم ـ أكثر من ذلك: خلال القرنين الماضيين صار البقاء على دين الإسلام يفرض تكاليف باهظة على المسلمين أفراداً وجماعات، ومع ذلك فالدفاع عن الإسلام لم يقل صدامية عن شراسة الهجوم عليه، مما يدل على أنه دين عميق التأثير في أفراد أتباعه. هذه نقطة تحتاج إلى شرح معمق.

النقطة الثانية التي تحتاج إلى شرح: من الأندلس إلى الصليبيين إلى الصهاينة في فلسطين إلى البوسنة والهرسك: يتميز الهجوم على الإسلام بشراسة ووحشية ومذابح وتهجير يرتكبه المسيحيون ضد المسلمين، مع أن الإسلام انتشر سلماً بالهداية والإقناع والقدوة الحسنة. فما هو سبب هذا الحقد الجماهيري في أوساط الأوروبيين على الإسلام مع أن التاريخ في هذا الكتاب لا يعطينا سبباً لهذا السلوك الثأري الأوروبي؟!

أخيراً، إن وجود أقليات ضمن أكثرية كاسحة دليل أكيد على روح التسامح الاجتماعي والديني في أساسها. لكننا لا نجد تحليلاً لأسباب التسامح الاجتماعي في الإسلام، لا على صعيد المجتمع ولا على صعيد العقيدة. فالباحثون يختصرون الحديث عن الإسلام وموقفه من غير المسلمين، بمصطلحي «أهل الذمة» و«الجزية»، والقتل في حالة الارتداد. ومع أنني لست من أهل الاختصاص فإنني واثق من أن الإسلام أكبر من هذه الحدود في تعامله النظري والعملي مع غير المسلمين.

أخيراً، ثمة مقالتان عن الموارنة، إحداهما قصيدة بشكل مقالة تشيد بالنشأة البطولية والإعجازية لهذه الطائفة، والمقالة الأخرى بقلم المؤرخ كمال الصليبي.

المقالتان تؤكدان على استقلال المجتمع الماروني عن محيطه العربي المسلم. ويعزى هذا الاستقلال إلى مناعة جبل لبنان وصلابة الموارنة. وأنا لا أجادل في هذا، ولكن ماذا عن الطرف الثاني.. ماذا عن هذه الإمبراطوريات الإسلامية بجيوشها الجرارة التي ظلّت لأكثر من ألف عام تجول بين حدود الصين وحدود فرنسا ـ هل صحيح أن هذه الجيوش تقحمت كل المعاقل وارتدت عاجزةً عن جبل لبنان؟ أم أن للتسامح وتفضيل التعاون والميل إلى السلام الداخلي دوراً أكبر مما يعترف به المؤرخون للتاريخ الإسلامي والمجتمع العربي.